أقصوصة عراقية

ثورة الجهل

بقلم يعقوب بلبول

شعور مخيف مضطرب مغر بحب الاستطلاع كان يعرو وائلاً البدوى حينما كان يستمع إلى المذياع فى مقهى قرية المحمودية ؛ فلقد كان من قبل يعجب للحاكى كيف يعيد الكلام فما بالك بهذا الصندوق الصغير ، يتلو القرآن وينشد الأغانى ، ثم يتكلم وكأنه رجل بأحاديث إرشادية أو صحية ؛ بل ربما صغى إلى نظم الأشعار صادرة عنه ؛ وهو حين يذكر « عنه » لا يدرى بالضبط ما تعنيه هذه الكلمة فى قوله ؛ فلم يكن فى هذا الصندوق أنبوب يبعث الأصوات كما فى الحاكى ؛ وكان فى بعض الأحايين يسمعه ناشزاً بموسيقى تارة ضخمة عريضة الصوت وأخرى دقيقة رقيقة . غير أنه لم يكن ليجد بين أصواتها تآلفاً ولا نظاماً ؛ فما كان يفهم لها معنى ، أو يعتبرها موسيقى ؛ فقد كانت تنفر منها أذنه وينبذها حسه ؛ إذ أن الموسيقى التى اعتاد الاصغاء إليها والتلذذ بها ، كانت تلمس أوتار قلبه وحواسه ، فيطرب لوقعها ، وينصت إليها بشوق وتلهف .

ولقد كان يحار أشد الحيرة فى تعريف هذا الصندوق وتعليل منشأ أصواته وأغانيه وأحاديثه ؛ حتى أن الحاكى كان أقرب حقيقة من عقله الساذج المحدود ، فهو يعلم أنه يسير بمقدرة خادم المقهى الذى يدير ساعدته ، وبالاسطوانة التى يضعها فوق سطحه المستدير ، ثم بالابرة المجددة فى كل حين . وهو يعلم بأن الحاكى يمكنه أن يعيد ما فى الاسطوانة من أغان دون القدرة على الابتكار والتجديد ؛ أما أن تعبث أصابع أبى عبطان — وهو صاحب المقهى — بلولب خشبى صغير ، فيسمع من ذلك فى كل يوم سوراً جديدة من القرآن ، ومبتكرات حديثة من الأغانى والأناشيد ، وأحاديث أخرى متباينة عما سبقتها ، وقصائد منظومة ، وأخباراً متجددة عما يحدث فى البصرة وفى بغداد وفى مكة ، فذلك ما كان يعجز عن تصديقه ، فيربك خواطره ويشغل باله !

ولقد حسب أول الأمر أن فى داخله جنا ؛ غير أنه ما لبث أن نفى هذا الحسبان لوثوقه الأكيد من أن الجن لا يعرفون تلاوة القرآن ، وإن كان باستطاعتهم إنشاد الأغانى والتهويش فأنى لهم برواية الأخبار والوقائع ؟ حتى لقد سمع يوماً هذا الصندوق يقول إن الحكومة قد شرعت فى تعبيد طريق (المحمودية — بغداد) فكان ما قاله الصندوق صحيحاً ليس فيه أدنى اختلاق ... وأنى لهم بالخطب الارشادية والصحية ومقطوعات الأشعار والقصائد يلقونها على مسامعه ...؟

وكان عقله الصغير يأبى أن يعقل أن فى جوف هذا الصندوق إنساناً هو الذى يتلو القرآن ، وينشد الأغانى ، وينظم الأشعار ؛ فقد كان يراه على صغره لا يستوعب جسم طير متوسط الحجم ؛ فأنى له أن تكون فى جوفه هذه الشخصية المحيرة ؟

وتقرب منه ذات مرة يستطلع منشأه ، فما رأى سوى صندوق مستقل موضوع فوق منضدة خشبية بسيطة ، غير أن الذى لفت انتباهه وجود سلك أسود متصل بناحية الصندوق الخلفية ، يؤدى إلى الخارج حيث يتصل عند سطح المقهى بسلك آخر مد على عامودين متفارقين . فما هذا الخيط المعرض تحت السماء ؟ أيمكن أن الأصوات تأتى إليه منها ؟ أم هل يمكن أن يكون هو الأصل لمصدر هذه الأحاديث ؟

وعنّ له ذات يوم ، وقد أغراه حب الاستطلاع وثار به الجهل إلى استشفاف المجهول ، أن يبتر السلك الممدود خلسة ؛ فتم له ذلك فى ظهيرة خلا فيها المقهى من الجالسين ؛ وعاد دون أن يشعر به أحد إلى مأواه . ولما كان المساء ، وذهب وائل إلى المقهى كعادته ، راعه من أبى عبطان غضبه ووعيده ، وهو يحاول عبثاً دفع الصندوق إلى الترتيل والإنشاد ؛ وقد تحقق لديه بعد ذلك انبتار السلك الأعلى ، حينما وقعت عليه عين أحد زبائنه مصادفة ، فنبهه إليه . ولقد ثارت ثائرة أبى عبطان ، فاتهم خادمه مجدولا . غير أن الملتفين حوله من زبائنه أفلحوا فى إقناعه بأن انبتار السلك قد حصل من جراء توتره وهبوب الرياح العاصفة عليه

وأصلح السلك فى اليوم الثانى وأعيد ربطه ؛ فما أدهش وائلا إلا أن يعود الصندوق إلى شأنه الأول ، إذن فالسلك الأعلى هو أساس كل شىء ! أى سحر هذا الذى به ؟ ! وأية قوة خارقة هذه التى تجعله يبتكر الأغانى والأحاديث ويتلو القرآن ! ؟

ومما يعجب له وائل أشد العجب سماع أصحابه فى المقهى يتحدثون بأن هذه التلاوة والأناشيد والأحاديث إنما تذاع من بغداد أو من مصر (وقد علم بعد السؤال بأنها أبعد من مكة) فتصل إليهم فى هذه القرية النائية بلا أنبوب أو سلك !

وغدا وائل وجل همه أن يتعرف كيفية حصول هذه الظاهرة المعجزة وسببها ؛ وأصبح يجنح للوحدة ويطيل من التحديق فى اللاشىء ، مسترسلا فى تفكيره الذى كان ينتهى به إلى الثورة والتذمر ممزوجين بألم مطبق شديد ، دون أن يهدىء من حدته ، أو يبعث إلى فؤاده المضطرب شيئاً من الراحة والاستقرار ...

ووائل هذا يا صديقى فلاح من قبيلة آل فتلة ، استوطن قرية المحمودية يعمل فى الزراعة والحرث . وهو شاب فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، جميل الطلعة ، مهيب الصورة ؛ له فى القامة طول وفى المنكبين عرض ؛ وهو أسمر اللون جثل الشعر فاحمه ؛ يزين وجنته السمراء الكالحة ذقن صغير ؛ وله فى كل من أذنيه ثقب نفذت فيه حلقة هى بمثابة القرط عند البدوى ؛ أما جلبابه وهو لا يرتديه إلا بعد انتهائه من العمل ، فهو من القماش البسيط المخطط يتوسطه حزام قد تدلى فى مقدمه خنجر فى غمد من الجلد

ولوائل زوجتان وثمانية أطفال أكبرهم فى السادسة من عمره

* * *

جلس وائل ذات يوم على حجر كبير خارج كوخه ، يحدق فى الفضاء كاسفاً مبلبل الخاطر ، وفى رأسه شىء مرتبك غامض ؛ فهو يرجح رأيه بين هذا وذاك ، حائراً تبدو عليه الحيرة بأجلى ظواهرها ؛ وهو فى ذلك حزين ساهم النظرات ، مضطرب لا يستقر ؛ ولم يكن ليشعر بالاضطراب محصوراً فى رأسه فقط ، بل إنه ليتعداه إلى صدره فيلج فؤاده ويعمل عمله فى قلبه ؛ ولعل هذا هو مصدر الحزن

الذى شاع فى نفس وائل ، ولعله أصل السهوم الذى ران عليه وسيطر على روحيته

لقد كان يفكر فى أمر الصندوق الصغير ... إنه ليسائل نفسه عن سر هذه الظاهرة ، أهى سحر؟

قد تكون سحراً وقد لا يكون فيها للسحر من أثر ؛ وهل يقوى السحر على نظم الأشعار ، ورواية الأخبار ، وتلاوة القرآن ؟ ثم هل يخطب السحر فى الناس خطباً دينية وأخلاقية وصحية ؟ وهل بلغ بجميع أصحابه من المستمعين الحمق والجهل هذا المبلغ ، حتى لينصتوا إلى السحر دون أن يفهموا أنه سحر ؟

وكيف يكون ذلك سحراً والجميع يجزمون بأن القرآن الذى يسمعه إنما يتلى فى بغداد أو فى مصر ؟ إن أمر ذلك لعجيب والحق !

هل هى معجزة إلهية ؟

قد تكون معجزة لأنها تخرج القرآن من الخشب الأخرس فتدفعه ليتكلم ويغنى ، وقد لا تكون معجزة ما دام ذلك يتكرر فى كل يوم ، وما دام ذلك يتبع قوانين أساسية إن أهمل واحد منها فليس هناك قرآن ولا أحاديث . أو لم يجرب ذلك بنفسه فبتر السلك ، وإذا بالصندوق الناطق عي ؟ ! فاذا لم تكن هذه الظاهرة معجزة فكيف إذن يبث الصوت في بغداد فيصل سمعه بنفس اللحظة ؟

إنه لن يصدق ولن يعقل أبداً أن مصدر القرآن والأخبار والقصائد إنما هو بغداد أومصر ؛ فذلك سخافة وقول هراء !

فلا بد إذن من أن يكون فى جوف هذا الصندوق شىء لا يراه ولا يشف عنه هذا الحجاب الخشبي الصفيق ! ولا بد من أن يكون فى جوفه حاك أو ما يشبه الحاكى ؛ بل لا بد من أن يكون فيه حى يتبدل بتوالى الساعات ، ويجدد الأغانى والسور فى كل يوم !

فمن هذا الذى هو فى نفس الوقت المغنى والشاعر والمخبر والموقع على الرباب ؟ وإنه لينصت إلى صوت نسائى يغنى فى بعض الأحيان ، أفتكون امرأة هى التى فيه ؟ كلا ! إنه ليسمع القرآن بصوت لا يشك فى أن صاحبه رجل ؛ أفيكون من فيه رجل وامرأة أم هو شخص يتقلب بين الرجل والمرأة ؟

ربما كانت له القدرة على تغيير لهجته ونبرته ولكن ... ولكن يسع هذا الرجل صندوق صغير الحجم إلى هذا الحد ... ؟ !

ثم خطر له خاطر قلب أسس أفكاره جميعها رأساً على عقب ؛ فاذا كان فى جوفه رجل كما يزعم فما معنى وجود هذا الخيط المعرض للسماء ، والذى لولاه لما كان فى الصندوق تلاوة من قرآن ولا إنشاد من أغان ؟ !

إذن فالخيط هو الأصل ! وما يكون هذا الخيط حتى يغدو الأصل فى كل ما يسمعه من غناء وأحاديث

كلا .. كلا .. لن يكون هذا الخيط إلا واسطة يحار عقله فى ادراكها ؛ ولأى شىء يمكنه أن يتوسط ؟ أيمكنه أن يتوسط للشخص الذى بداخل الصندوق ؟ وما يمكن للسلك أن يفعل مع شخص يتلو القرآن وينشد الأغانى ! ؟

وهكذا مضت على وائل ساعة وساعات ، وهو حائر مشوش الفكر مسلوب الراحة ...

وأتته إحدى زوجيه تضاحكه وتحاول أن تطرد عنه سهومه وأساه وقد حارت فى تعليل أسبابهما ؛ فعافها وائل واجتواها ، ونحاها عنه بعيداً فارتابت فى أمره ؛ ثم عادت تسأله عن سبب سهومه وحيرته فما ظفرت منه بجواب غير صرخة صعقتها تأمرها بالابتعاد ... !

ومنذ ذلك الحين ووائل يتخذ مقعده فى المقهى

قرب هذا الصندوق العجيب ، فيرى بعين الانتباه واليقظة أبا عبطان يدير اللولب ، ويهيئه للتلاوة والإنشاد ، فتعلم ذلك وأتقنه ، حتى لو طلب منه إدارته لما توانى ولما أخطأ

* * *

وانتبه وائل ذات ليلة عند الفجر ، فاستمعى عليه بعد ذاك الكرى ، وراح يفكر فى سر هذا الصندوق الذى كاد أن يذهب بعقله ، ولقد اعتراه الاضطراب ساعتئذ بشدة ، ودفعه حب الاستطلاع وثورة الجهل المتمرد فى رأسه لأن يغادر فراشه خلسة ويتفقد خنجره فيطمئن عليه ، ثم لأن يتابع سيره ميمماً شطر المقهى ...

ودنا منه فألفى السكون شاملاً له ، فدخله من بابه المفتوح ، ورأى مجدولاً الخادم يغط فى نومه حتى لقد كان يسمع غطيطه عالياً

وما كان وائل ليجهل موضع الصندوق ، فقد طالما رأى أبا عبطان يضعه فى دولاب صغير مثبت بالجدار ، ثم يقفله بمفتاح يضعه فى جيب صدرته ، فاستل وائل خنجره من غمده وجعل يغرزه بحيطة وتيقظ فى خشب الدولاب ، فما هى إلا لحظة حتى تكسر لما كان عليه من القدم والبلى ؛ فانتزع بيده الصندوق ، ومن ثم طفق يعمل فى إدارته ، مقلداً بذلك أبا عبطان كما كان يراه يفعل ، وقد غاب عن باله الخادم الراقد على مقربة منه يغط ...

وأدار اللولب الصغير فانبعثت من الصندوق موسيقى رقيقة ، أخذ وائل يبتسم لها ويطرب ؛ استطرد فى إدارة اللولب فما راعه إلا أن يسمع قرعاً مزعجاً أخافه وأرعده ، فكان يشد على اللولب ويحركه ، فما كان من هذه الأصوات المزعجة إلا أن تعلو وتشتد فتزداد خشونة وروعة

وتعالى القرع والطن إلى حد مخيف ، فغدا جسم وائل يرتعد وكأنه الريشة فى مهب الريح ... وكان وائل لا ينفك يدير اللولب فهمدت الأصوات ، إلا أن تلك أعقبتها أحاديث غريبة عجيبة فى لفظها ، فارتاع وخيل إليه أنه فى مملكة الجن وأن الشياطين قد برزوا جميعاً من مكامنهم ... ولم يكن ليتبين صوتاً لشخص ، بل لقد كان يسمع لغطاً لأشخاص عدة ، تارة يصرخون ، وأخرى يقهقهون بضحكات مزعجة مخيفة ... فما ارتاب وائل فى أن الجن قد تجمعوا واستقروا داخل هذا الصندوق العجيب... فصمم ليحطمنه فيحطمن من به من الجن ... !

وانتزع الصندوق بكلتا يديه ، وهو فى ثورته وهلعه ، وألقاه على الأرض بكل قواه ... فتطايرت شظاياه فى أنحاء المقهى وفجأة خمدت أصواته ...

وانتبه الخادم الراقد على أثر ألم فى رأسه أصابه من جراء اصطدام قطعة حديدية ، فهب مذعوراً ليس يدرى أفي الحلم هو أم فى اليقظة ؛ ولم يكن منه حين ألفى وائلاً أمامه ، إلا أن أطلق ساقيه للريح صارخاً بأعلى صوته ، مستشهداً ومستنجداً أهل الذمة ... فهب بعض أصحاب الأكواخ والدور الراقدين على أثر هذا الصراخ وتسارعوا إلى الطريق بينما كان وائل يحاول التملص والاختباء ، غير أن القوم أدركوه وقبضوا عليه دون مقاومة بيديها ، فأسلموه إلى الشرطة

ولم تمض خمسة أيام على هذه الحادثة حتى كان وائل يسير مخفوراً بنفر من الشرطة شاكى السلاح متوجهاً به نحو السجن المركزى ...

(بغداد) يعقوب بلبول